صهيل تحت جلود الأبيض

قصة بقلم زكريا تامر

غرفة الرجل المتعب بلا ضوء ، صامتة ، سوداء ، علبة صغيرة من الحجر الرطب ... اعود اليها بدون حنين بعد ان تشردت طوال ساعات عبر شوارع غريقة في الضياء المنبعث من واجهات المحال المتناثرة على الجانبين ... ومن الإعلانات الكهربائية ذات الالوان المختلفة . وكان الليل آنذاك اغنية خشنة حارة طويلة ، يتعانق بحنان في عتمة كهوفها عذوبة ربيع وتوحش نمر جائع .. وكنت وطواطا هرما اعمى جناحاه محطمان .. لا اجد خبزي وفرحي .. اجهل خبزي وفرحي .. يصدمني الصخب اينما سرت .. فلكم يرعبني ضجيج المخلوقات الزاحفة حولي على الارصفة .. انه يبعدني عن نفسي عن نقطة سوداء قابعة في داخلي باردة حزينة كنجم ميت .. انا لست سوى مخلوق ما ضائع في زحام مدينة كبيرة قديمة .. لست دون جوان .. لا املك سيارة ولا بناية شامخة في شارع لا يسكنه الفقراء .. جبهتي لم تلمس مرة سجادة مسجد .. لست بطل ملاكمة او مصارعة .. صورتي لا يعرفها قراء الصحف والمجلات .. اشتغل في اليوم ثماني ساعات .. اتعب .. ابتلع الطعام بسرعة عجيبة .. ادخن سجائر طاتلي سرت غليظة .. اجلس في مقهى .. اشترك بحماس في مناقشات عقيمة .. اقامر بمبالغ ضئيلة .. اضحك ببلاهة .. اغازل فتيات .. اشتم الله .. اصادق مومسات .. أروي بحزن حكاية حبي ذات الختام الحزين .. اسمع سيمفونيات سيبليوس .. اقرأ كتبا .. اتسكع في طرقات لولبية .. اتجرع بنهم خمورا رديئة فالليل بدونها كآبة مفجعة .

وشعرت بشوق لارتياد غاب الخدر والدوار والترنح .. وقادتني قدماي الى خمارة تقدم كؤوسا من الويسكي الرديء باسعار رخيصة .. صاحبها يعرفني .. انا سكيره الصامت الكسول .. اشرب .. كل الاشياء تافهة وغبية .

وبحركة يائسة من يدي افرغت في جوفي كاس الويسكي دفعة واحدة ، ثم مسحت فمي بظهر يدي ، ورحت احدق فيما حولي .. وتسمرت نظراتي على رجل بائس المظهر ، يجلس وراء طاولة قريبة . كان يرتشف من كاسه بين الفينة والفينة رشفة ضئيلة ثم يحملق برهة ، وبغتة ينفجر ضاحكا ضحكة كئيبة اكثر من البكاء ..

واحسست بخوف غامض عندما التقت عيناي بعينيه الذليلتين.. انه يبتسم لي .. سانهض واحادثه ..

قلت : انا عامل مسكين لا ابتسم .

قال : انا في النهار بائع الفحشة وفي الليل بحار مغامر .

قلت : انا لا احب البحر .. انه كبير وغامض .

قال : بعد منتصف الليل عندما أسلم رأسي للوسادة تبحر سفينتي .. آه لا شيء في العالم اجمل من البحر والسفر والتنقل الدائم .. الشراع يرفرف وانت تقف مشدود القامة مرفوع الراس تداعب الريح الرطبة خصلات شعرك وتنفذ الى اعماقك رائحة الملح وهدير الموج .. ستضحك بسرور وحشي فكل الاحزان خلفتها وراءك .. وعما قريب ستصل الى مرفأ لم تطأه قدماك من قبل .. وهناك ستقابل اناسا غرباء .. وستجلس في حانة تحتسي خمرتها اللاذعة على مهل .. وتصغي الى موسيقى مدهشة ستخلقك من جديد ، وستعيد اليك طفولتك المسلوبة .. وربما رقصت مع فتاة عيناها واسعتان تصهل في اغوارهما شهوة مجنونة .. آه ما اروع الاشياء الجديدة المجهولة !

قلت : السفر يخيفني .. اني اعشق مدينتي بجنون .. وقد كدت مرة ان ابكي عندما استنشقت رائحة عطر غريبة كانت تفوح من شارع تهطل الامطار بسخاء على مبانيه واسفلته واشجاره .

قال : البلهاء وحدهم يفضلون الهدوء .

قلت : احيانا احلم بزوجة واطفال ومنزل واتمنى لو يتحقق هذا الحلم .

قال : انت مجنون .. ستتحول ببطء الى دودة ضجرة لا تقدر على الهرب من قفصها الفولاذي .. البحر وحده يسعدني .. اترحل معي الليلة ؟

ورفعت كاسي مرة اخرى الى فمي ، واستقبل حلقي السائل اللاذع ، وضحكت هازئا من تخيلاتي .. فالرجل ذو المظهر البائس ما زال جالسا وراء طاولته يشرب ويحملق ويضحك ضحكته الكئيبة اكثر من البكاء .. وما زلت ملتصقا بمقعدي لم ابتعد عنه لحظة .

الخمارة ستقفل ابوابها .. وعلي مغادرتها .. الساعة الشاحبة تدنو كسكين ناعمة تخترق لحمي على مهل .. اقسى الساعات المريضة تقترب بينما الشارع يسترجع رجله المترنح .. انصت يا سكران الى ذلك الصفير المرح الطويل المترجرج برقة المنساب من فم الشاب الذي يسير امامك بخطى ثابتة مفعمة بحيوية مدهشة .. ربما كان انسانا سعيدا .. انت ايضا كنت مثله قبل سنوات .. كان لك فتاة .. مدينة افراح لذة .. لك شفتاها الارجوانيتان تفتحان لصحرائك الجائعة ابواب كنوز توقظ النار النائمة في دمك .. لك نهداها .. الثلج الذي له حرارة شمس صيف .. لك عيناها باسرارهما الغامضة .. لك شعرها الاسود .. الغيمة المكتئبة المتهدلة باسى فاتن على الكتفين .. كان لك فتاة .. مدينة افراح ولذة .. سلبت منك .. وها انت الان سكير شارع مقفر .. طين متراكم .. سحابة بلا مطر .. وحيد ككلب الاسواق الاجرب .. وتعيش ايضا ككلب الاسواق الاجرب .. ستنهض في الصباح في لحظة معينة .. ستتمطى وتتثاءب بتكاسل .. ستغسل وجهك وتمشط شعرك وترتدي ثيابك .. ستبصق كهرم مهترىء وانت تسير في شارع مغمور بشمس النهار الجديد .. ثم سيدفنك المعمل في احشائه الشرسة .. تعب تعب تعب .. انسى رائحة لحم العامل المحترق الذي تساقط عليه الحديد الناري المصهور المندلق من البوتقة التي افلتت فجاة من الايدي التي تحملها .. تلك الرائحة هي العالم .. لماذا تعيش يا سكران .. لماذا لا اموت .. ماذا سافعل لو كنت املك مدنا من ذهب .. لو احببتني اجمل امراة .. ماذا سافعل ؟.. اظنني ساحدق في لمعة حذائي الجديد واقول بضجر :

ـ اوه .. كل الاشياء تافهة وغبية .

سأموت .. خطوة واحدة الى امام واهرب من تعب المعمل والصياح والوجوه القاسية التي تسرق حتى الغبطة الوديعة المختبئة في عيني .

سأموت .. خطواتي تتراكض على الرصيف .. تتراكض .. تتراكض .. ويحتويني فراغ غرفتي .. سأموت .. وابتدأت ابتلع الحبوب الملساء الصغيرة وانا ابتسم ابتسامة متشفية .. هي وحدها باستطاعتها ان تنقذني من تعاستي .. ستميتني .

تمددت على الفراش دون ان اخلع ملابسي .. العالم ينأى عني بصراخه القبيح .. والنقطة السوداء المختبئة في صميمي تمزق اقنعتها .. وتظل تنمو حتى تتحول الى عنكبوت لا اقاومه بل اسقط بسهولة بين اذرعه اللزجة التي تلتف حولي وتمنعني من الحركة .

وابتهجت قليلا حينما فتح الباب ، وابتسمت بغبطة .. لقد عاد جوادي الابيض .. انه يقترب ويقف بقربي حتى اني لاستطيع ان اشم رائحة جلده المثقل بعبير الارض التي وطاها خلال تجوالاته الطويل .

وارتجفت وانا اسمع صهيله الذي يدعوني اليه ولا اقير على تلبيته ، ففي تلك اللحظة كنت احس بتبلد عجيب ، فكانني جثة طافية على وجه مياه نهر بطيء .. اواه .. لكم اشتهيت ان يرجع جوادي الابيض الهارب لكي امتطيه واترك له العنان ليعدو بي طويلا عبر براري لا افق لها .

وتعالى الصهيل مرة ثانية .. أواه انه سيرحل وحده اذا لم ابادر الى مرافقته .. سيرحل وحده .. وسمعت انصفاق الباب وحوافر تطرق الارض بايقاع غاضب وصهيلا حزينا يبتعد ويتلاشى شيئا فشيئا .

قلت لنفسي : سانتظره مرة اخرى .. انه سيرجع .. سيمل من التشرد وحيدا .

وتناهى الى مسمعي صوت امراة :

ـ لا تحزن .. لحمي الساخن سينسيك العالم كله .

قلت بذعر مستتر خلف دهشة : من انت ؟

فضحكت وقالت : انا صديقة طفولتك .. اتذكر ؟.. كان يسعدك ان تلتصق بي بشدة وتقبلني بخجل .

قلت : لا تخدعيني .. انت عاهرة عجوز .

فحدقت بي هنيهة وهي مذهولة ، ثم اخذت تبكي بحرقة ، فارتبكت واجتاحني حنان عارم فقلت لها باضطراب :

ـ اغفري لي .. انا احبك .

قالت : كرر ما قلت .

قلت : احبك احبك .

قالت : الا تشعر وانت تردد هذه الكلمة بان انسانا رائعا يولد في نفسك ؟..

قلت : لا شيء في داخلي سوى بعض العناكب والقبور المهجورة .

قالت بضراوة : انا امقت القبور .. امقتك .. امقت العالم كله .

فاغمضت عيني وانا احس بتعب غريب .. وفي لحظات سريعة تضاءل العالم وتحول الى حجر ضخم هوى في فضاء فارغ لا ارض له ، وبقيت وحدي وجها لوجه مع رجل قبيح اقبل نحوي وهو يلوح بسيف متالق النصل .. قال :

ـ ساقتلك .. ذلك السيف قديم وله ضحية في كل ليلة .

قلت : انه كمدينتي .

قال : ساقتلك .. ستنقرض الضحايا في يوم ما .. ولكن يبقى سواي .. وعندئذ ساكون الضحية لكي يظل السيف محتفظا بفتوته وتالقه .. ساقتلك .. ستتمتع بطعم لذة جديدة بينما ينزلق النصل الصلب في لحمك اللين .

واقترب مني وعلى فمه ابتسامة ارعبتني رغم انها كانت تقطر ودا ومحبة ، وتراجع جسدي الى الوراء وهو يرتعد وسط طوفان من الارتعاشات المتشنجة المتدفقة من خوف بلا قناع ، وعدت طفلا يعدو في الازقة الضيقة المتعرجة .. الطفل يضحك بعذوبة ويحتضن كل الاشياء بلهفة ام .. آه ليتني لم اكبر .. هزمت قبل ولادتي .. ورثت سيف جلاد .. احرقت اكواخ امسي .. بعت غدي .. آه يا امي تموت حديقة الياسمين في قلبي .. سأهرم آه يا نجمي الباكي السجين .. سأهرم آه يا نجمي المنطفيء على رخام فخذي امراة .. آه متى يهرم الموت ؟.. الانهار القرمزية تنتحب بصمت في حقولي الجرداء .. ناي ليلات الشتاء يصدح برقة عجيبة .. راقصة بيضاء تتلوى وسط ضباب أزرق .. بلبل جريح يغرد على غصن شجرة ليمون عطرها يقبل شباكا اخضر .. خيول متعبة نائمة على اسفلت لامع .. الفجر كمشنقة .. النساء ياكلن التفاح بأناة ويتمطين عاريات على وسائد من حرير .. رجال من اعقاب سجائر .. الصيف يغمس اصابعه الصلبة في دمي المرتجف ويركض فوق مدن مهجورة .. شفتاك يا حبيبتي المسكينة حانة شاحبة الضوء يأوي اليها الرجال العائدون من الموانيء النائية .. صفير قطار في شوارع صاخبة يذرعها ثلاثة متسكعون يتساءلون : الليلة كيف سنتعشى ؟.. بصقت على جوع شنق غيوما من القرنفل الضاحك .. سآكل نهدين باردين تنتزعهما اظافري الصفراء من صدر فتاة ميتة .. آله مدينتي خبز .. حبيبتي جميلة كالخبز .. ذليلة كبكاء رجل .. اشرق يا وجهها الشاحب يا صباحا متعبا .. صفير قطار .. وداعا وداعا .. اللون الجاف يتحول الى ايقاع دافيء ذي اجنحة .. العالم يفتح ابوابه للربيع .. السماء خضراء .. التراب اخضر .. الجبال خضراء .. الغيوم خضراء .. البحار خضراء .. الحزن اخضر .. انا اخضر .. رمادي .. اسود .. كل شيء اسود .. وبلهفة يمزق الجرح ضماده الاصفر ليستقبل حشدا من قبلات الموت .. وتدق الساعة معلنة بوحشة انتصاف الليل .. بيت الاطفال رماد .. خذني ايها الخريف الى غابات من هزال ودموع .. شفتا العملاق اقدام عارية مغلولة بالذباب .. وفي عيني حبيبتي المدفونة في رمال الصحارى شاهدت عربات مثقلة بالموتى تمر دون ضجيج .. اطفئي شموع النوافذ .. لا تنتظري عودتي يا امي .. لن استطيع الفرار .. الباب موصد .. يا خفاش المدينة .. يا اخي .. لحمي لحريق مدينتك .. قد استطيع ان احلم بالفرار .

وسمعت في تلك اللحظة صهيل جوادي الابيض ، فقد رجع بسرعة لم اكن اتوقعها .. ساكون صديقه الابدي .

وهتف بحرارة رجل كهل وجهه مجعد كقشرة شجرة هرمة :

ـ البشر طيبون البشر طيبون البشر طيبون .

فوددت لو اضحك كمجنون ، غير ان البرادي الخضراء التي لا افق لها كانت تناديني بشوق .. تنادي الرجل المتعب وجواده

وفي مكان ما في العالم سطع قمر نوره ازرق بارد ، وانسابت موسيقى فظة الايقاع .. كان ثمة مجموعة كبيرة من الابواق النحاسية ترسل صراخا وحشيا متحشرجا يحاول ان يتسلق اعلى قمة .. لكن الصمت يهزمه ولا يبقى سوى كمان صغير ناعم يتاوه وحده مرتجفا بينما يبتعد الرجل المتعب خلسة عن المدينة ممتطيا جواده الابيض .

دمشق زكريا تامر